

صيد الخاطر

252 - - فصل : الحزم كتمان الحب و البغض .

من أراد اصطفاء محبوب المحبوب نوعان : امرأة يقصد منها حسن الصورة و صديق يقصد منه حسن المعنى .

فإذا أعجبتك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مديدة قبل أن يتعلق القلب بها تعلقا محكما فإن رأيته كما تحب - و أصل ذلك كله الدين كما قال : [عليك بذات الدين] - فمل إليها و استولدها .

و كن في ميلك معتدلا فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة فإنه يشتط عليك و تلقى منه الأذى من التجني و الهجران و الإدلال و طلب الإنفاق الكثير - و إن كانت تحبك - لأن هذا إنما يجتلبه حب الإدلال و التسلط على المقهور .

و ثم نكتة عجيبة و هو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة و هي تحكم بكمال الحب ثم إن ذلك لا يثبت إليك فتقع و تبقى مقهورا و يصعب عليك الخلاص .

و ربما تمكنت بمعرفة شرك أو بأخذ كثير من مالك .

و من أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حبا شديدا و لا تظهر له ذلك فسلئت عن هذا فقالت : لو أظهرت ما عندي فجفاني هلكت قال الشاعر :

(لا تظهرن مودة لحبيب ... فترى بعينك منه كل عجب) .

(أظهرت يوما للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيب) .

و هكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد لأنه يتسلط عليك و يضع مالك و يبالغ في الإدلال و يمتنع عن التعلم و التأدب .

و كذلك إذا اصطفت صديقا و خبرته فلا تخبره بكل ما عندك بل تعاوده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال و قد قيل :

(إحذر عدوك مرة و احذر ... صديقك ألف مرة) .

(فلربما انقلب الصديق ... فكان أدرى بالمضرة) .

و أما إذا أبغضت شخصا لأنه يسوؤك فلا تظهرن ذلك فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك و تدعوه إلى المبارزة فيبالغ في حرك و الإحتيال عليك بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت و تبره ما استطعت حتى تنكسر معاداته بالحياء من بغضك فإن لم تطق فهجر الجميل لا تبين فيه ما يؤذي .

و متى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة فهي أقوى في كفى لسانه .
و كذلك جميع ما يخاف إظهاره فلا تتكلمن به فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان فنقلت
إليه فكانت سبب هلاكك .

أو عن صديق فكانت سبب عداوته أو صرت رهينا لمن سمعها خائفا أن يظهرها .
فالحزم كتمان الحب و البغض .

و كذا ينبغي أن تكتم سنك فإن كنت كبيرا استهرموك و إن كنت صغيرا استحقروك .
و كذلك مقدار مالك فإنه إن كان كثيرا نسبوك في نفقتك إلى البخل و إن كان قليلا طلبوا
الراحة منك .

و كذلك المذهب فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفره .
و قد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار :

(احفظ لسانك لا تبخ بثلاثة ... سن و مال ما استطعت و مذهب) .

(فعلى ثلاثة تبلى بثلاثة ... بمموه و مخرف و مكذب)